إعجاز القرآن الكريم، قراءة في جماليّة ودلالة بنيّة التّشكيل الإيقاعي (دراسة تنظيريّة تطبيقيّة)

Qur'anic Inimitability: Aesthetic and Semantic Dimensions of Rhythmic Formation (A Theoretical and Applied Study)

د. عماري مالك♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال:DOI 10.33705/0114-027-003-002 2025

تاريخ الاستلام:31-05-2025-تاريخ القبـول:16-06-2025-تاريخ النّشر: 15-09-2025

ملخّص: وقفتنا في هذه الورقة البحثيّة تتجه نحو الكشف عن ملمح من ملامح إعجاز القرآن الكريم في جانبه الإيقاعي، مبرزًا جماليته وأثر تمظهراته الدّلاليّة، وفق قواعد نظام تركيب أصواته، المتّصفة بالثّبات والاستقرار، المتعلّقة بالنّقل والتّوقيف، فلإيقاع اللّفظ المفرد والتّركيب، صورة دقيقة المعنى، وجماليّة تستبدّ بالقلوب. إنّ الأصوات بإيقاعها تشهد –عن طريق حاسّة السّمع والإدراك والفهم–بلسان دلالات وإيحاءات وجودها الخارجي، المتناهيّة مع أرقى درجات الحسن والشّرف والكمال.

يهدف هذا العمل البحثي إلى بيان خصوصيّة إيقاع أصوات القرآن الكريم المتفرّدة من حيث المخرج والصّفة، جماليا ودلاليا، وقد خلصت في نهايّة العمل

♥جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، البريد الإلكتروني:ammarimalek.50@gmail.com (المؤلّف المرسل).

البحثي إلى أنّ بنيّة الإيقاع بمختلف مستوياتها في الخطاب القرآني تلعب دورًا كبيرا في إيصال المعنى، وتعميق الفهم، والإسهام في توجيه الفكر (العقل) واستلاب العاطفة (القلب)، عن طريق التّوازن الدقيق المعجز بين الصّوت والمعنى.

الكلمات المفتاحيّة: القرآن الكريم؛ الإيقاع؛ الأصوات؛ الدّلالة؛ الجماليّة؛ المخارج؛ الصّفات.

Abstract: This paper explores a key aspect of the Qur'an's inimitability—its phonological dimension—by examining the aesthetic impact of its rhythmic structure and the semantic depth it conveys. The Qur'anic sound system operates according to precise rules of articulation and phonetic attributes, characterized by consistency, harmony and divine precision.

This research aims to highlight the unique features of Qur'anic rhythm in terms of sound articulation and phonetic attributes. The study concludes that the sounds of Qur'anic discourse play a significant role in conveying meaning deepening comprehension, guiding the intellect, and stirring emotions. This is achieved through a miraculous and precise balance between sound and meaning.

Keywords: The holy Quran; rhythm; sound; sementic; aesthetics; External; Attributes.

1.مقدّمة: تشكل ظاهرة الإيقاع في مجال الدرس الإعجازي أبرز مباحث البيان، مثله مثل باقي الأساليب التي تناولها النّقاد في مؤلّفاتهم، إذ لم يغفل البلاغيون القدامى ارتباط الإيقاع الصّوتي بالخطاب القرآني، وإن كنّا نعتقد أنّ هذا الموضوع لم ينل حظّه في الدراسات النّقديّة والبلاغيّة القديمة، إلّا ما ظهر عرضا في بعض المؤلّفات.

يقوم الإيقاع اللّغوي في القرآن الكريم على تتابع نظام أصوات ذات معنى محكمة النّطق مخرجا وصفة، متّصفة بالثّبات والاستقرار، متعلّقة بالنّقل والتّوقيف، فالإيقاع له نظام صوتي مرتبط بالنّفس، لأنّ النّفس بطبيعتها تميل إليه، وهذا كون" الإنسان يميل إلى عدم إدراك الأشياء التي تقلقه وتزعجه والأمور التي تتعارض مع رغباته وأهوائه".[1] (محمد عثمان نجاتي، 2001م).

وكما أنّ له ارتباط بالنّفس فكذلك له صورة صوتيّة مرتبطة بالدلالة، تعمل كباقي البنيات الأخرى، على تعزيز فهم أسرار آيات الذكر الحكيم على وجهها الصّحيح، والكشف عن معانيه التّفصيليّة، وأسراره الدفينة. ولا شكّ أنّ بنيّة الإيقاع في القرآن الكريم تأتي لتتجاوب مع مستتوين اثنين: بنيّة اللّغة داخل نظام الخطاب، وبنيّة الوجود الخارجي، يعزّزها سياق التّراكيب المتناهيّة في الحسن المستوفيّة الكمال والجمال، فبمجرد سماع إيقاعه الفذ، ورنّته الجذابة تتحرك في الإنسان دواخله من وجدان وفكر، من خلال الحسن، الواقع من جهة ما تقوم به صفات ومخارج أصوات الحروف من وزن وجرس، ومن جهة ملاءمتها مجموع معاني السّياق الجامع، إذ لا يصحّ صوت مكان صوت آخر وهو ما يتحقّق في تراكيب أصوات القرآن، وممّا يشهد بذلك ما ذكره الكاتب البريطاني مارمادوك بيكتول(marmadukepickthall)**واصفا شعوره حين سماع القرآن: "هذه السّمفونيّة الفريدة كل صوت فيها يحرك في الإنسان الوجد والدموع".[2] (أحمد ديدات ، د تا).

إنّ تنوّع بنيّة الأصوات (مخرجا وصفة) بشقّيها: من حيث الجرس، ومن حيث إيقاعه المتنامي داخل التّركيب، تعطي الإيقاع دورا هاما في تأديّة المعنى؛ فالصّوت المجهور ليس كالصّوت المهموس، والمستفال ليس كالمستعلى والمطبق ليس كالمنفتح، والحلقي ليس كالشّفوي، وهكذا دواليك، ولكلٍّ إيقاعٌ ورنّة تظهر قوتها الدلاليّة وفق أصدائها. ومن هنا يستوقفنا الإشكال الآتي: هل

للإيقاع وظيفة جماليّة ودلاليّة، أم هو مجرد نغم وموسيقى؟ وإن تحقّق ذلك، أين مكمن جماليّة الإيقاع في القرآن الكريم؟ وكيف يسهم الإيقاع في تشكيل الدلالة؟

ولأنّ القرآن الكريم أشرف الخطابات وأجلّها هدفا، لكونه كلام الله تعالى المتّصفة أصواته بالدقّة والإحكام مخرجا وصفة، فسأحاول تقديم مقاربة أكشف من خلالها عن بنيّة الإيقاع في القرآن الكريم، وتجلّياته الجماليّة والدلاليّة وفق موازين وضوابط علم الأصوات نطقا، معتمدا المنهج الوصفي، والأسلوبي التّداولي، وهدفي من هذا كلّه الوصول إلى الكشف عن المعاني الدقيقة المخبأة تحت مظلة ظاهر بنيّة الصّوت اللّغوي، لغايّة إيصال المعنى وتعميق الفهم.

2. **مفهوم الإيقاع:** لم يرد مصطلح الإيقاع في كلام الأوائل بكثرة، مثل ما هو عليه عند المحدثين، فما ثبت وروده – فيما أعلم – بهذا المعنى كان على لسان ابن طباطبا (ت: 332هـ)، وحازم القرطاجني (ت: 684هـ)، وأبي القاسم السّجلماسي (ت:704هـ)، وفي المعاجم، كلسان العرب لابن منظور (ت:711هـ)، والقاموس المحيط للفيروز آبادي (ت:817هـ)، أمّا المحدثين فثبت عند الكثير، منهم على سبيل التّمثيل لا الحصر، طاهر بن عاشور وسيد قطب في كتابيه: الظلال والتّصوير الفنّي، ومحمود شاكر وغيرهم، ولم يرد لفظ الإيقاع بهذه الصّيغة والمعنى في القرآن الكريم، بل ورد اثنا عشر مرّة بصيغة وبمعاني مغايرة.

1.2 في اللّغة: يقول ابن منظور: "الإيقاع من إيقاع اللّحن والغناء وهو أن يوقع الألحان ويبينها، وسمّى الخليل –رحمه الله–كتابا من كتبه في ذلك المعنى كتاب الإيقاع.[3] (ابن منظور، د تا)، وورد في القاموس المحيط للفيروز آبادي" الإِيقاعُ: إيقاعُ أَلْحانِ الغناءِ، وهو أن يُوقِعَ الأَلْحانَ ويَبْنِيَه"[4]. (الفيروزآبادى 2005م).

وعليه فالإيقاع في أجلّ معانيه يرتبط باللّحن، واللّحن "من الأصوات المصوغة الموضوعة".[5] (ابن منظور، د تا) أي الأصوات المرتّبة المنسجمة المكوّنة من نغمات أو مقطوعات ذات إيقاع وتأثير جمالي، مصاغة وفق قواعد محدّدة.

2.2 <u>في الاصطلاح:</u> يعرفه محمد مندور، كونه عنصرا يتولّد عن رجوع ظاهرة صوتيّة أو تردّدها على مسافات زمنيّة متساويّة متجاوبة أو متقابلة.[6] (محمد مندور، 1987م).

وعليه فالإيقاع أصوات تمتلك تناغما وانسجاما وائتلافا وفق بنيّة حركة تزامنيّة متّفقة من حيث الموقع والميزان، بحيث يكون لهذه الأصوات أثر نفسي. والملاحظ أنّ النّقاد العرب القدامى قد ربطوها بالوزن، يقول ابن طباطبا: "وللشِّعر المَوْزون إيقاعٌ يَطْربُ الفَهْمُ لصَوابِه وَمَا يَرِدُ عَلَيْهِ من حُسْنِ تَركيبِهِ واعتدالِ أَجزائهِ".[7] (ابن طباطبا، د تا).

أمّا عبد القاهر الجرجاني فيربطه بالنّغم، يقول: "ومحالٌ أَنْ يكونَ اللفظُ له صفةٌ تُسْتَنْبَطُ بالفِكْرِ، ويُسْتعانُ عليها بالرّويّة، اللهمَّ إلاَّ أنْ تُريد تأليفَ النّغَمِ. وليس ذلك ممَّا نحنُ فيه بسبيل"[8].(عبد القاهر الجرجاني، 1992م).

ويقول طاهر ابن عاشور: وإنّما قلنا: على تخيّر من لذيذ الوزن؛ لأنَّ لذيذَه يَطرب الطبع لإيقاعه، ويمازجه بصفائه، كما يَطْرَبُ الفهمُ لصواب تركيبه واعتدال نظومه".[9] (الطاهر ابن عاشور، 2015م).

3. **<u>مفهوم علم الإيقاع</u>:** أمّا علم الإيقاع، فهو العلم الذي يدرس الأوزان الشّعريّة والإيقاع[10]. (أحمد مختار عبد الحميد عمر، 2008م)، والشّعريّة تشمل الشّعر والنّثر.

4. <u>مفهوم الصّوت</u>: يعرّفه تمّام حسّان بأنّه الأثر السّمعي الذي به ذبذبة مستمرّة مطّردة، وحتى ولو لم يكن مصدره جهازا صوتيا حيّا، وهو الذي يشمل –كما ذكر–اللّغوي وغير اللّغوي.[11] (تمام حسان، 1990م).

ورد لفظ "صوت" في القرآن الكريم ثمان مرات، وذلك في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات2] وقوله:﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[الإسراء64]. وقوله:﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه108] وقوله:﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[لقمان19] وقوله:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات3].

1.4. في <u>اللّغة</u>: جاء في معجم لسان العرب، "الصّوْتُ: الجَرَسُ. وصوّتَ به: نادى، والتّصويت: الدعوى، وصات يصوتَ صوتًا، فهو صائتٌ أي صائحٌ. يقول ابن سكّيت: الصّوْتُ صوت الإنسان وغيره.[12] (ابن منظور، د تا).

2.4 في **<u>الاصطلاح</u>:** هو عبارة عن أثر سمعي لتموّجات تنتشر في الهواء وتتحرك بصورة دوائر مركزها واحد وقطرها متفاوت، ويعمل جهاز نطق الأصوات على اهتزاز الموجات والتي تؤدي إلى تحديد خصائص الصّوت المنتشر، وكلّ صوت لغوي يتكون من حركات وقروع له تردده الخاص به. وله سعة اهتزاز تقاس مسافته إلى أقصى موقع يصل إليه الاهتزاز.[13] (أحمد مختار عبد الحميد عمر، 2008م).

ويتشكل الصّوت عن طريق تصور ذهني (الدماغ)، يرسل إشارات إلى أجهزة التّحكم في أعضاء النّطق عن طريق إعمال الحنجرة، وتشكيل يسير لهيئة التّجاويف العليا، وقوفا عند الأعضاء المسؤولة عن إنتاج الكلام، فيطلق ذبذبات ملازمة للصورة، وتنقسم أعضاء النّطق إلى قسمين:

-الأعضاء النّطقيّة الثّابتة: تتضمن الأسنان والفكّ العلوي واللّثة والغار والجدار الخلفي للحلق والأنف.

-الأعضاء النّطقيّة المتحرّكة: تشمل الشّفتين واللّسان والطبق والفكّ السّفلي واللّهاة والحنجرة والوترين الصّوتيين والرّئتين والحجاب الحاجز.

5. <u>أبعاد الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم:</u> يأخذ الإيقاع أبعادا متنوّعة، منها الجماليّة التّأثيريّة والدلاليّة، ولكلّ بعد من هذه الأبعاد ارتباط بالنّفس والفكر أي المعنى.

1.5. <u>الإيقاع والظاهرة النّفسيّة:</u> ما يرتبط بالنّفس، يكون – عادة – وليد الجمال، على اعتبار أنّ النّفس – كما ذكرت مسبقا– تتشوّف لكل حسن لطيف، وتنفر عن كلّ قبيح غليظ، ولا شكّ أنّ الإيقاع مرتبط بالحاسة السّمعيّة، والسّمع كما يذكر ابن خلدون أبو الملكات اللّسانيّة، [14] **و**هذا بالتّحديد ما نلمسه في تضاعيف مؤلّفات النّقاد والبلاغيّين القدامى والمحدثين، يقول ابن طباطبا (ت:322هـ): " إنّ كلّ حاسة من حواس البدن إنّما تتقبّل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها ورودا لطيفا باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادّة معها... والأذن تتشوّف للصوت الخفيف السّاكن وتتأذّى بالجهير الهائل".[15] (ابن طباطبا، د تا) وعلى نحو ذلك يقول أبو هلال العسكري (ت395هـ): "والنّفس تقبل اللطيف، وتنبو*عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عما يضاده ويخالفه..والسّمع يتشوف للصواب الرّائع وينزوي من الجهير الهائل".[16] (أبو هلال العسكري، 1952م)

ويورد ابن رشيق (ت:456هـ) قولا منسوبا لغيره يعتبر فيه أنّ: "الألفاظ في الأسماع كالصّور في الأبصار".[17] (ابن رشيق القيرواني، 2001م) أي كما أنّ الصّور تؤثر في البصر وتحمل معانيَ وإشارات، كذلك الألفاظ تؤثر في السّمع وتحمل دلالاتٍ ومعاني، وهذا ما لم يخالف فيه المحدثون، فيعتبرون أنّ المعنى لا يمكن استشعاره وتذوّقه إلاّ إذا وافق نغمه وترنيمه ونبره ما يستلذّه السّمع وتهواه النّفس، ومن ذلك ما ذهب إليه فتغانشتان (wittgenstein)*

"أنّ الاستخدامات اللّغويّة حسبها أن تكون رموزًا أو وسائط تشير إلى تلك الحالات النّفسيّة ".[18](محمد بركات أبو علي، 2003م).

ويعتبر ما جاء به عبد القاهر الجرجاني أكثر توضيحًا لهذا التّوجّه، حينما أقرّ أن الكلام إذا كان الغرض منه الإيقاع الصّوتي الموسيقي فقط، فقد يكون للفظ تأثير، كون الجمال أو البلاغة في الكلام لا تتعلق باللّفظ وحده، وإنّما بكيفيّة تركيب الألفاظ وفق المعاني، معتبرًا من الاستحالة أن تكون للّفظ ذاته، صفات عقليّة يمكن إدراكها بالتّفكير والتّأمل بمعزل عن المعنى والتّركيب، فاللّفظ – في تصوّره – لا يُستنبط بالعقل، لأنّه مجرد أداة لنقل المعاني، وعليه فليس هو جوهر البلاغة. يقول: "ومحالٌ أَنْ يكونَ اللّفظُ له صفةٌ تُسْتَنْبَطُ بالفِكْرِ ويُسْتعانُ عليها بالرّويّة، أللهمَّ إلاَّ أنْ تُريد تأليفَ النّغَمِ. وليس ذلك ممَّا نحنُ فيه بسبيل".[19] (عبد القاهر الجرجاني، 1992م).

ويمكن أن نستأنس في هذا الباب بما أورده ياسر عبد الرّحمن روايّة عن سيد قطب–رحمه الله–قوله: " كنّا على ظهر الباخرة في عرض الأطلنطي وطريقنا إلى نيويورك، حينما أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب، ستة من الرّكاب المسلمين من بلاد عربيّة مختلفة وكثير من عمّال المركب أهل النّوبة، وألقيت خطبة الجمعة متضمّنة آيات من القرآن في ثناياها، وسائر ركاب السّفينة من جنسيات شتّى متحلّقون يشاهدون. وبعد انتهاء الصّلاّة جاءت إلينا –من بين من جاء لنا عن تأثرّه العميق بالصّلاة الإسلاميّة–سيدة يوغوسلافيّة فارّة من الشّيوعيّة إلى الولايات المتحدة، جاءت وفي عينيها دموع لا تكاد تمسك بها وفي صوتها رعشة، وقالتّ لنا في إنكليزيّة ضعيفة: أنا لا أملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم، ولكن ليس هذا ما جئت من أجله، إنّني لا أفهم من لغتكم حرفا واحدا غير أنّني أحسّ أنّ فيها إيقاعا

موسيقيا لم أعهده في أيّة لغة، ثم إنّ هناك فقرات مميّزة في خطبة الجمعة وهي أشد إيقاعا ولها سلطان خاص على نفسي ".[20] (ياسر عبد الرّحمن 2007م).

2.5. <u>الإيقاع ودلالة التّركيب:</u> الذي عليه القرآن الكريم هو عدم الاقتصار على طيبِ اللَّحْنِ مِنْهُ دون مَا سواه، بل يصاحب هذا الإيقاع طيّب المعنى ولذيذه، وللإيقاع على اختلاف أضربه مَواقِع لطيفَة عِند فهم قواعده، وعند عدم فهم كيفيّتها كذلك، كلطيف الطرب أو لطيف الأغذيّة يلتَذُّهما القارئ، ويَقْبلُهما ويتشوّفهما السّمع ويطرب لهما بمجرّد سماعهما؛ دون أن يعلم أحيانا كيفيتها؛ فمثلا، إذا علمت كيفيّة تركيب نوتات الموسيقى، ازداد تلذّذك بنغمات ذلك اللّحن، وأدركت سرّ جمالها ومواطن حسنها، وإن لم تدرك ذلك حصل معك ذلك التّلذّذ، وإن كان أقلّ منه لعدم إدراكك قوانينها، ومنه فإن أدركت أسرار حركيّة الأصوات في انتظامها وتناسقها وانسجامها، وفق بنيّة تزامنيّة متّفقة من حيث الموقع والميزان، فقد أصبت اللّذة، وبقدر ما تملك من قدرة على فهم قواعد تلك الأصوات يحصل التّلذّذ بتلقيك هذا الإيقاع.

ثم إنّ موافقة الإيقاع للمعاني يضاعف حسن موقعها لمستمعها، وفي هذا السّياق يقول ابن طباطبا: "وللشِّعر المَوْزون إيقاعٌ يَطْرِبُ الفَهْمُ لصَوابِه وَمَا يَرِدُ عَلَيْهِ من حُسْنِ تَركيبهِ واعتدالِ أَجزائِهِ، فَإِذا اجتَمَع للفَهْمِ مَعَ صِحَّةِ وَزْن الشّعر صِحَّةُ وَزْنِ المَعْنَى وعُذوبةُ اللَّفظ فَصَفَا مَسْموعُهُ ومعقُولُهُ من الكَدَرِ تَمَّ قبولُهُ لَهُ، واشتمالُهُ عَلَيْهِ، وإِنْ نَقَصَ جزءٌ من أجزائِهِ التي يكمُلُ بهَا – وَهِي اعتدالُ الوَزْنِ، وصوابُ المَعْنى، وحُسْنُ الأَلْفَاظ – كَانَ إِنْكَار الفَهْم إِيَّاهُ على قدْر نُقْصان أَجزائِه".[21] (ابن طباطبا، د تا).

ثمّ ما يذكر أنّ ظاهرة الصّوت وما يؤديه من دلالة قد أولاها العرب اهتماما بالغا؛ منذ وقت مبكر، فقد بدأ البحث عن طبيعة العلاقة بين جرس الكلمة

ومعناها الذي يتسق معها عند العرب منذ واجهوا مشكل الآيات القرآنيّة وإعجازها".[22] (قاسم بني دومي، 2006م).

هذان البعدان الجمالي التّأثيري والدلالي، ينعكسان من داخل مستوى بنيّة اللّغة ضمن نظام الخطاب، ومن بنيّة مستوى الإيقاع وعلاقته بالوجود الخارجي.

-الأوّل: ينحصر في بنيّة اللّغة في ذاتها وبذاتها.

-الثّاني: يخرج اللّغة من انكفائها على ذاتها إلى الوجود الخارجي، سواء منه النّشاط الإنساني أم الكوني.

وهكذا يستخدم القرآن الكريم خصائص الإيقاع الصّوتي كوسيلة للتأثير كما سبق أن بينا، فيختار لكل مقام ما تستوجبه البلاغة في التّعبير عنه.

6. <u>الإيقاع وتجلّياته الجماليّة والدلاليّة (دراسة تطبيقيّة)</u>: يأخذ الإيقاع أشكالا مختلفة، كإيقاع بنيّة الكلمة، ويتركّز الإيقاع هنا على الأحرف، أو الكلمة مقابل الكلمة، بحيث يتألّف إيقاع بنائيً أي في حدود بنيّة الكلمة ويمكن أن نطلق عليه البعد التّزامني الآني، وهو الحركة التّردّديّة للأصوات داخل بنيّة اللّفظة، كحرفي الهاء والهمزة، نحو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام/ 26] وإيقاع اللّفظة، كالجناس النّاقص في القول ذاته (ينهون/ ينأون). وإيقاع التّركيب، وهو الحركة التّرددّيّة للأصوات المتتابعة في النّسق المتآلف حيث يتألّف منه إيقاع تتابعي، ويمكن تسميته البعد التّركيبي للأصوات، ويتفرع منه البعد التّركيبي الحقيقي كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِفَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه، 108]، والمجازي والذي يكون إيقاعه في الصّورة، كقوله تعالى: ﴿وَالصّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التّكوير/18] بدل والصّبح إذا ضوء نهاره أقبَل وتبيَّن، وفق أبعاد جماليّة تأثيريّة ودلاليّة، ولنا في هذه الشّواهد توضيح فيما يأتي.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، فالنّاظر لهذا التّركيب القرآني يرى بوضوح انبعاث الإيقاع المتّزن، المتناسق الذي يسري في نسق هذا التّركيب، كسريان الدمّ في العروق، بحيث أصبح ينبض حياة، إذ بين الكلمتين تشابه في الحروف والتّركيب واختلاف في حرف واحد فقط، الهاء والهمزة، وهو جناس ناقص، ويفسّر كالآتي:

النّهي طلب ترك الشّيء، والنّأي بمعنى الابتعاد، وهو المبالغة في ترك الشّيء، وهو في هذا السّياق يوافق المعنى، من جهة الصّوت مخرجا وصفة فالهاء مخرجه من أقصى الحلق، مهموس. وهو أقلّ من الهمزة التي مخرجها من أقصى الحلق، مجهور، وهو نفسه معنى درجة الإعراض بين كلمتي النّهي والنّأي.

وهناك لطيفة قد تخفى على البعض، فالحرفان يلتقيان مع النّون السّاكنة ويكون حكمهما الإظهار، وهو نفس دلالة إظهار المشركين عدائهم لرسالة النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – بطلب التّرك والابتعاد هم أنفسهم، يقول ابن كثير في تفسيره؛ القرآن العظيم، "وقوله ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ في معنى ينهون عنه قولان، [أحدهما]: أن المراد أنّهم ينهون النّاس عن اتباع الحق وتصديق الرّسول والانقياد للقرآن، ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي ويبعدونهم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يدعون أحدا ينتفع، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يردون النّاس عن محمد ﷺ، أن يؤمنوا به وقال محمد ابن الحنفيّة :كان كفار قريش لا يأتون النّبي ﷺ وينهون عنه".[23] (ابن كثير، 1998م).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ ﴾ [الطور/35]. فمن جهة النّغم بهذا النّسق –كما يذكر الألوسي(ت:1270هـ)–يظهر حسن المقابلة ولو قيل: أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ أي الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لا يعبدون الله عز وجل

ولا يلتفتون إلى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ على القولين لا يظهر حسن المقابلة.[24](شهاب الدين الألوسي، 1994م).

إنّ حذف المفعول به (أنفسهم) في قوله: [أم هم الخالقون]، جاء ليردف حسن تقابل ثانٍ في قوله: [أم خلقوا السّموات والأرض بل لا يوقنون]. "والتّقابل ضرب من التّناسق الفني في القرآن".[25] (كاصد ياسر حسين، 1978م).

والملاحظ تكرار حرف الخاء، والميم، وتوزيعهما توزيعا مقطعيا حرفيا قصيرا فالميم، مخرجه من الشّفتين معًا، وصفته الجهر، والخاء مخرجه من الحنجرة باستخدام أقصى اللّسان مع الحنك الأعلى أو الحلق، وينطق مع اهتزاز الأحبال الصّوتيّة، وصفته، الجهر، والاحتكاك بين اللّسان والحنك.

ومجيء هذين الحرفين على التّتابع، حرف "الميم" شفوي، وصفته الجهر وحرف "الخاء" حلقي، مجهور، يظهران تباينا واضحا في مخرج الحرفين (الشّفوي/ والحلقي)، وإن كانا يتّفقان في صفة الجهر، وهو ما يعكس معنى التّباين بين معنى التّركيبين: (أم خلقوا من غير شيء/ أم هم الخالقون)، التي تعزز دلالة نفي انتفاء الإيجاد وإثبات نقيضه، وتأكيد فعل الإيجاد أي أنّهم مخلوقون.

كما جاءت هذه المقاطع طلبا للتوازن، وهذا مذهب البلاغيين في اعتبار الإيقاع الصّوتي المتوازن عنصرا هاما من عناصر التّأثير في الخطاب اللّغوي "ولكن الإيقاع المقصود هو إيقاع في نطاق التّوازن لا في نطاق الوزن، فالوزن في العربيّة للشعر، والتّوازن في الإيقاع للنثر. والذي في القرآن إيقاع متوازن لا موزون"[26] (تمام حسان، 1993م)، ولا شكّ أنّ مثل هذا التّناسب بين توزيع المقاطـع الصّوتيّة توحي بهذا الإيقاع المفتوح، الذي يزرع الإثارة والانتباه في نفس المتلقي عن طريق حاسة السّمع.

ثم لمّا استهلّ الله تعالى هذه الآيّة، بهذا الإيقاع المتناسق، إنّما ليعضد معنى الاستفهام الإنكاري، ويحقّق دلالة مفادها: إن هذه القضيّة التي استُدل بها فطريّة بديهيّة مستقرة في النّفوس، لا يمكن لأحد إنكارها، ثم يأتي بهذه المقابلة مع الاستفهام الرّديف في قوله: [أم هم الخالقون] ليتمّم مشهد التّخبط والعجز عن إثبات الادعاء بانتفاء الخلق، وجَعْلِها في هذا السّياق يعزز دلالة نفي انتفاء الإيجاد وإثبات نقيضه.

والفطرة السّليمة تدرك بلا شك في هذا النّغم لطفا وحلاوة وطراوة، حتى إذا وصل المعنى إلى القلب تضاعفت اللّذة عنده بتوافق النّغم.

أمّا الإيقاع وعلاقته ببنيّة الوجود الخارجي، فنعني به ما يقدّمه من مشاهد مطابقة للواقع وللتجربة، باعتباره مكوّنا أساسيا في نسيج الخطاب الإعجازي الذي يجعلنا نعيش التّجربة ونتفاعل معها، فكلّ لفظة أو تركيب بإيقاعهما يشهدان بلسان وجودهما الخارجي عن طريق حاسّة السّمع، كما لا يقتصر على البعد المطابق للوجود الخارجي، إنّما يتعدّاه ليحقّق البعدين الجمالي والدلالي، إذ الإيقاع فرع من الجمال ودليل عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالصّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التّكوير/18]، بدل قوله: والصّبح إذا أقبل، لما في لفظ تنفّس، معنى تلك الرّيح الخاصّة التي تقبل في فترة زمن الصّبح، والتي تفرج عن القلب انبساطا وانقباضا، فشُبه ذلك النّسيم بالنّفس وأطلق عليه الاسم استعارة وجعل الصّبح متنفسا.[27] (الألوسي، 1994م).

فحرف الصّاد في كلمة (الصّبح): يتميّز بمخرجه الذي هو من طرف اللّسان وصفاته تشمل الهمس، الرّخاوة، الاستعلاء، الإطباق، والصّفير، ممّا يجعله حرفًا مفخمًا ومميزًا في النّطق العربي. وحرف السّين يخرج من طرف اللسان مع الثّنايا السّفلى، وهو حرف **مهموس، رخو، مستفل، منفتح، مصوّت بالصّفير**، ممّا يجعله حرفًا واضح النّطق وسلسًا ومستساغا عند السّماع، ويتّفق

مع حرف الصّاد في: الصّفير، الهمس، الرّخاوة، ويختلفان في باقي الصّفات وبالتّالي إيقاعهما يحمل دلالات عميقة، فوجود حرف الصّاد في لفظة الصّبح يمنحها تأثيرا يوحي بالقوّة والعظمة، لما يحمله هذا الحرف من هذه الصّفة، وهو ما يتناسب والظاهرة الزّمنيّة للحظة ميلاد الصّبح من الظلمة الشّديدة. ما يوحي إلى الحياة والتّجدّد، ثم مع اقترانه بحرف الباء الذي يحمل صفة الإذلاق التي تمثّل سرعة خروج الحرف، والانفتاح عدم التصاق اللّسان بسقف الحنك والاستفالة، ممّا يزيد انسيابّة الكلمة، مع إبقاء الشّدّة الموحيّة لعظمة هذه الظاهرة، كون الحرف من صفاته، الجهر والشّدّة.

وبتضمّنه حرف الحاء، الذي يحمل الصّفات نفسها، من رخاوة وانفتاح واستفالة وخفاء، مع عدم اتصافه بالقوّة والشّدّة، ما يوافق مرحلة الخروج من الظّلمة الشّديدة، وهي مرحلة انبثاق الضّوء، وميلاد النّهار، فجاء على التّرتيب الشّدّة ثم أقلّ شدّة ثم انفراج.

ويقابله حرف السّين، في كلمة (تنفّس)، الذي يتميّز بمخرجه من طرف اللّسان مع الحافة العليا من الأسنان العليا، قوي لصفة الصّفير، وحادّ نتيجة الاحتكاك القوي بين اللّسان والأسنان. مستفيل أي يصدر من الجزء الأمامي من الفمّ. وهو ما يعكس التّقابل بين معنى صوتي الحرفين، ودلالتّهما الخارجيّة. وحتى تتحقق هذه الدقة لابد من توفر شروط، أو مميزات منها:

أ. جمال وقعها في السّمع (النّفس بدل يقبل، أو يطلع، أو يظهر) وذلك من خلال استفالة حرف السّين وانفتاحه ورخاوته ورقّته، التي تتوافق مع ما يوافق مرحلة الخروج من الظّلمة الشّديدة، وهي مرحلة انبثاق الضّوء، وميلاد النّهار.

بـ. اتساقها الكامل مع المعنى (حصوله في وقت مديد ما يوافق التّراخي أثناء تعاقب الليل والنّهار).

جـ. اتساع دلالتّها (الانبعاث شيئا فشيئا) لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى (الإقبال والطلوع وغيرها).

7. خاتمة: في ختام هذا العمل البحثي، توصّلت إلى النّتائج الآتيّة:

– التّأكيد على أنّ التّشكيل الإيقاعي لأصوات الخطاب القرآني تلعب دورا كبيرا في التّأثير النّفسي، وإيصال المعنى وتعميق الفهم؛

– الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم ليس مجرد نغم، أو موسيقى؛ بل هي أداة جماليّة وبلاغيّة تسهم في توجيه الفكر (العقل) واستمالة العاطفة (القلب)، من خلال مخارج حروفه وصفاته المتفرّدة؛

– يبرز الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم المعاني بطريقة دقيقة ملموسة ويخلق تناغما موسيقيا يجعل الخطاب القرآني أكثر تأثيرًا وفاعليّة؛

– يعكس الإيقاع الصّوتي في القرآن الكريم التّوازن بين الصّوت والمعنى؛

– يتمثّل الخطاب القرآني الكريم صورة الموضوع بالمزاوجة بين الجرس (الإيقاع) والظل (المعنى)؛

– يوحي الإيقاع الصّوتي القرآني في نفس المتلقي تخييل صور ذهنيّة تشيع في نفس المتلقي جوا نفسيا معينا، باعتبار النّفس تابعة للهوى، والهوى تواق وميال لما هو أجمل؛

–نستشف مدى عنايّة أسلوب القرآن بعمليّة تأديّة المعنى، وإيصاله للمتلقي عن طريق الجرس الموسيقي للفظة المفردة، والمتواليات الإيقاعيّة، وهذا بلا شك قد أسهم في سمو الفكرة وجماليّة العبارة.

والذي عليه كلّ خبير بأسرار اللّغة يعلم يقينا أنّ كل لفظ ورد في القرآن يمثّل إيقاعا قرآنيا تطرب له النّفوس، وتتشوّف له الأسماع.

8. قائمة المراجع:

1. أحمد ديدات، القرآن معجزة المعجزات، تر: علي عثمان، مكتبة ديدات، المختار الإسلامي، (د ط)، (د تا).

2. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة عالم الكتب، ط1، 2008- م.

3. الألوسي البغدادي أبو الفضل شهاب الدين السّيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة – بيروت ط1 1994م.

4. تمام حسان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنص القرآني)، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1993م.

5. تمام حسان، ينظر، مناهج البحث في اللّغة، مكتبة الأنگلو-مصريّة، د ط، 1990م.

6. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر مطبعة المدني بالقاهرة -دار المدني بجدة، ط3، 1992م.

7. ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، دار القم، بيروت، لبنان، ط4، 1981م.

8. ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن، العمدة (في محاسن الشّعر وآدابه ونقده)، تح: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط1، 2001م.

9. ابن طباطبا العلوي محمد أحمد، عيار الشّعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع مكتبة الخانجي – القاهرة ، (د ط)، 2005م.

10. الفيروز آبادى مجد الدين، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة محمد نعيم العرقسُوسي، الرّسالة بإشراف: مؤسسة الرّسالة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت – لبنان، ط8، 2005 م.

11. قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصّوتيّة في القرآن، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2006م.

12. ابن كثير الدمشقي أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط1، 1998م.

13. محمد بركات أبو علي، البلاغـــة العربيّة في ضوء الأسلوبيّة ونظريّة السّياق، دار وائل للنشر، ط1، 2003م.

14. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النّفس، دار الشّروق، القاهرة – مصر، ط7 2001م.

15. محمد الطاهر الميساوي، جمهرة مقالات ورسائل الشّيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، دار النّفائس للنشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2015م.

16. محمد مندور، في الميزان الجديد، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط2 1987م.

17. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ط)، (د تا).

18. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصّناعتين (الكتابة والشّعر) تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبي وشركاه، بيروت، ط1، 1952م.

19. ياسر عبد الرّحمن، موسوعة الأخلاق والزّهد والرّقائق (قصص تربويّة من حياة الأنبياء والصّحابة والتّابعين والصّالحين)، مؤسّسة اقرأ للنشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، ط1 2007م.

مجلّات:

_ كاصد ياسر حسين الزّيدي، الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، مجلة آداب الرّافدين تصدر عن كليّة الآداب، جامعة الموصل، العدد1،9 أيلول 1978م.

9. هوامش:

[1]. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النّفس، دار الشّروق، القاهرة – مصر، ط7 2001 م، ص:134.

[2]. أحمد ديدات، القرآن معجزة المعجزات، تر: علي عثمان، مكتبة ديدات، المختار الإسلامي، (د ط)، (د تا)، ص:27.

[3]. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ط)، (د تا(، ج8، ص:408.

[4]. الفيروزآبادى مجد الدين، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة محمد نعيم العرقسُوسي، الرّسالة بإشراف: مؤسّسة الرّسالة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت – لبنان، ط8، 2005 م، ص:773.

[5]. ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص:379.

[6]. محمد مندور، في الميزان الجديد، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط2، 1987م ص:187.

[7]. ابن طباطبا العلوي محمد أحمد، عيار الشّعر، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع مكتبة الخانجي –القاهرة، (د ط)، 2005م، ص:21.

[8]. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر مطبعة المدني بالقاهرة –دار المدني بجدة، ط3، 1992، مج1، ص: 395.

[9]. محمد الطاهر الميساوي، جمهرة مقالات ورسائل الشّيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، دار النّفائس للنشر والتّوزيع، الأردن، ط2015،1 م، ج3، ص:181.

[10]. ينظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، ط1، –2008 م، ج3، ص:131.

[11].تمام حسان، ينظر: مناهج البحث في اللّغة، مكتبة الأنجلو مصريّة، د ط، 1990 ص:59.

[12]. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص:57.

[13]. أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ج2، ص:1330.

[14]. مقدّمة ابن خلدون، دار القم، بيروت، لبنان، ط4، 1981، ص: 564.

[15]. ابن طباطبا العلوي، عيار الشّعر، ص: 19،20. *تنبو: تنفر.

[16]. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصّناعتين (الكتابة والشّعر) تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابى الحلبى وشركاه، بيروت، ط1، 1952م ص: 57.

[17]. ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن، العمدة (في محاسن الشّعر وآدابه ونقده)، تح: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت–لبنان، ط1، 2001م، ج:1، ص: 135.

*(1889م-1951م)، أكبر فلاسفـــة القرن العشرين أحدثت كتاباتـــه ثورة في فلسفة ما بعد الحربين، ولد في فيينا(النّمسا)، درس بجامعـــة كمبردج بإنكلترا. عمل في المقام الأوّل في أسس المنطق والفلسفـــة والرّياضيات وفلسفـــة الذهن وفلسفة اللّغة.

[18]. محمد بركات أبو علي، البلاغـــة العربيّة في ضوء الأسلوبيّة ونظريّة السّياق، دار وائل للنشر، ط1، 2003م، ص:37.

[19]. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، مج1، ص: 395.

[20]. ياسر عبد الرّحمن، موسوعة الأخلاق والزّهد والرّقائق (قصص تربويّة من حياة الأنبياء والصّحابة والتّابعين والصّالحين)، مؤسسة اقرأ للنشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، ط1 2007م، ج1، ص: 127.

[21]. ابن طباطبا، عيار الشّعر، ص:21.

[22]. ينظر: قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصّوتيّة في القرآن، عالم الكتب الحديث إربدالأردن، ط1، 2006م، ص:17.

[23]. ابن كثير الدمشقي أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط1، 1998 م ج3، ص:221.

[24]. الألوسي البغدادي أبو الفضل شهاب الدين السّيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح:علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة – بيروت ط1 1994م، ج14، ص:38.

[25]. كاصد ياسر حسين الزّيدي، الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، مجلة آداب الرّافدين تصدر عن كليّة الآداب، جامعة الموصل، العدد1،9 أيلول 1978م، ص:349.

[26]. تمام حسان، البيان في روائع القرآن (دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنص القرآني)، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1993م، ص:269.

[27]. ينظر: الألوسي، روح المعاني، ج15، ص:235.